الأردية لسان الدعوة والأدب الاسلامى

فى شبه القارة الهندية

دكتور حازم محمد احمد محفوظ ☆

شرفت شبه القارة الهندية ..التى تضم اليوم ثلاث دول ذات سيادة هى باكستان وبنجلاديش والهند ـــ أول ما شرفت بتنفس صبح الاسلام وذالک فى ثغورها الجنوبية ' على عهد امير المؤمنين الامام "على بن ابى طالب" ـــ رضى الله عنه ـــ ذلک ان "الحارث بن مرة العبدى ' ارتحل طواعية باذن من الامام "علي" ' الى منطقة القيقان ـــ من بلاد السند جنوب باكستان اليوم ـــ وذلک فى الاواخر من عام ثمانية وثلاثين واول عام تسعة وثلاثين من الهجرة ' فكان له النصر المبين.

وفى العاشر من رمضان العظيم عام اثنين وتسعين للهجرة ـــ على عهد الوليد بن عبد الملک الاموى ـــ توجه اول جيش عربى نظامى الى شبه القار ة الهندية لفتح اقليم السند ' تحت امرة قائد له الشهرة من قادة العرب هو " محمد بن القاسم الثقفى " ' وهو فى صدر شبابه فما تجاوز السابعة عشرة ' واستطاع فى مدة لا تزيد عن ثلاث سنوات أن يفتح هذا الاقليم المترامى الأطراف ' ونشر دين الله بين الهندوس . وعند هذا الحد

☆ مدرس الأردية وآدابها كلية اللغات والترجمة . جامعة الازهر ' مصر

مدرس الاردية وآدابها كلية اللغات والترجمة جامعة الازهر

توقفت فتوحات العرب فى شبه القارة الهندية ، وتعاقبت قرون ثلاثة على ذلك .

وانعقد عزم المجاهد الكبير السلطان " محمد الغزنوى "(٣٥٧ــ٤٢١هـ) ملك غزنة وبلاد الافغان ومؤسس الدولة الغزنوية الاسلامية فى شمال شبه القارة الهندية ــ على فتح أقاليم شمال شبه القارة الهندية ، فتحقق ما رغب فيه بعد سبعة وعشرين عاماً من الفتوح ، وذلك بين عام ٣٩١ وعام ٤١٧هـ . وما فتح هذا السلطان من تلك الاقاليم فهو ما يشكل اليوم دولة باكستان ، وهى اقليم الحدود والبنجاب وبلوجستان والسند ، وفيها رقت قلوب الهندوس لدين الله القويم .

وأتسع السلطان " معز الدين محمد الغورى " (ت ٦٠٢هـ) ــ سلطان بلاد الغور الأفغانية ومؤسس الدولة الغورية الاسلامية فى شمال و شرق القارة الهندية ــ فى فتوحات المسلمين ، فاجتاحت جيوشه مدينة دهلى وغزت اقليم البنغال كله ــ وهو دولة بنجلاديش ــ وتعاقبت فتوحه ثلاثين عاماً ، الحق فيها هزائم بجيوش الهندوس ، وذلك بين عام ٥٧٠ وعام ٥٩٩هـ .

ويعد السلطان الشهير " علاء الدين الخلجى " الملقب باسكندر المسلمين (ت ٧١٥هـ) ــ وهو ثانى سلاطين دولة الخلجين الأفغان فى شبه القارة الهندية ــ اول من دفع لواء الاسلام فى جنوب شبه القارة الهندية ، وذلك بين عام٦٨٩ وعام ٧١١هـ.

وبلغت الدولة الاسلامية ذروتها فى شبه القارة الهندية على عهد الملك الصوفى الزاهد "محمد اور نجزيب عالمجير" (١٠٢٧_١١١٨هـ) ـــ اعظم ملوك دولة المغول الاسلامية ، وأشهر سلطان مسلم حكم شبه القارة الهندية على مر عصورها الاسلامية ـــ وقد وفقه الله الى اعادة فتح شبه القارة الهندية بتمامها ، فى نصف قرن من الزمان ، فجعل تلك الدولة الاسلامية مرهوبة الجانب ، وامتدادها من افغانستان و كشمير وحدود الصين شمالا الى سرى لانكا جنوبا ، ومن نيبال شرقاً الى الخليج العربى غرباً .

هذا ولقد ايقن الهندوس منذ اللحظة الاولى ، ان المسلمين يختلفون عن غيرهم من الفاتحين ، اذ أنهم لم يكونوا طامعين فى مغانم ، ولا متها فتين على مطامع دنيوية ، ولا راغبين فى التخريب والتقتيل ، بل كانوا ـــ وما يزالون ـــ دعاة رسالة انسانية ، وأصحاب عقيدة سماوية ، شاءوا ان يرفعوا رأية الاسلام فى ربوع شبه القارة الهندية . فاخذ الهندوس يدخلون تحت راية الاسلام جماعات وجماعات ، وسعوا ـــ الى جانب الحكومات الاسلامية و مشايخ الصوفية ـــ لتطبيع شبه القارة الهندية بالطابع الاسلامى .

وكانت العربية اللغة الرسمية فى اقليم السند ابان الحكم العربى ، الذى دام ثلاثة قرون (٩٢_٣٩١هـ) ولكن اتخذت الدول الاسلامية التى حكمت شبه القارة الهندية من بعد ـــ وهى الغزنوية (٣٩١_٥٧٠هـ) والغورية (٥٧٠_٦٠٢هـ) والمماليك (٦٠٢_٦٨٩هـ) والخلجية (٦٨٩_٧٢٠هـ) وآل تغلق (٧٢١_٨١٧هـ) والسادات

(٨١٧_ ٨٥٥هـ) واللودهية (٨٥٥__ ٩٣٢هـ) والمغولية (٩٣٢_ ١٢٧٢هـ) __ من الفارسية الاسلامية لغة رسمية لها ' لأنها كانت أوسع انتشاراً في المشرق ' واللغة الناطقة عن الحضارة الاسلامية ' كما كان الشغف بها لدى فاتحى شبه القارة ألهندية ' بالنظر الى انهم جاوروا وخالطوا الفرس.

واستوطنت جيوش المسلمين __ من بعد __ شبه القارة الهندية ' وقد تألفت لك الجيوش من قادة وجند وعلماء وأدباء وتجار من العرب والفرس والترك والأفغان والمغول __ وضمت من بعد كذلك قادة وجند من الهنود الذين أسلموا وحسن اسلامهم __ وارتحل كثير من قبائل العرب والعجم ' وكذلك علماء ورجالات الصوفية ' نحوشبه القارة الهندية ' واختلطوا بالسكان ' وتم بينهم التآلف والتواد ' وجد هؤلاء الرجالات من مشايخ الصوفية وغير هم من العلماء ' في نشر الاسلام ' كما اصهر ت القبائل المهاجرة الى الهنود الذين دخلوا في دين الله أفواجا .

وعلى مر الزمان أثرت لغات الفاتحين __ خاصة العربية والفارسية والتركية __ تأثير عميقا في لغات مدينة دهلى __ عاصمة الدول الاسلامية __ وما حولها ' وعلى التحديد لغة كهرى بولى ' واسعة الانتشار. كما أثر ت تلك اللغة __ وغيرها __ وفي لغات الفاتحين ' وأفضى الأمر الى امتزاج كل هذه اللغات في كيان واحد ' هو نشأة لغة اسلامية جديدة هي اللغة الأردية ' قبل ما يقرب من خمسمائة عام.

وظهرت بوادر تلك اللغة فى معسكرات الجيوش الاسلامية ـــ التى كانت تشبه الاحياء السكنية ـــ فى مدينة دهلى وضواحيها . واتسع انتشار اللغة الجديد مع الفتوحات الاسلامية المتعاقبة ، حتى عمت كل ربوع شبه القارة الهندية .

تنتمى الغة الاردية الأسلامية الى الأسرة اللغوية المعروفة بالأسرة الهندية الأوربية ، ونتعدد مراحل تطورها على امتداد التاريخ ، كما سميت بأسماء مختلفة ، منها : " هندوستانى " و " دهلوى " و " دكنى " و " ريخته " و " اردو معلى " ، الى أن سميت أخيراً : " اردو زبان " أى لغة المعسكر ، نسبة الى معسكر المسلمين .

وتألفت من عناصر لغوية اسلامية و هندية متعددة ، فيقال بوجه عام انها مزيج من لغات خمس هى : العربية والفارسية والتركية والسنسكريتية وكهرى بولى . وكان تاثرها بالعربية اظهر ما يكون ، ففيها من العربية خمسون بالمائة .

كتبت الاردية بالخط العربى الفارسى ، قبل أن يد خل المغول شبه القارة الهندية وتقام دولتهم المغولية الاسلامية (٩٣٢ ـــ ١٢٧٢هـ) ، كما وجدت فيها حروف مبتكرة عديمة النظير . وتتالف الاردية من واحد وخمسين حرفاً .

وكان بالأردية اهتمام ملحوظ فى الدولة المغولية الاسلامية ، وتطورت الى ما هو افضل بفضل بعض ملوكها ، فاصبحت اللغة الاسلامية الرسمية

الأخرى بعد الفارسية . وشاء الملك المغولى الشهير محمد شاهجهان (١٠٠٠_١٠٧٦هـ) _ بانى مقبرة تاج محل ___ أن يعلى من شان الاردية ، فشيد لها سوقا اطلق عليها: " اردو بازار " ___ اى سوق الاردية ___ على غرار سوق عكاظ عند العرب ، وذلك فى مدينة شاهجهان التى امر ببنائها الى جوار دهلى العاصمة ، وفرض على كل من يصلون هذه السوق من مختلف الاقاليم ، التحدث بالأردية . فكان هذا العمل الفريد فى شبه القارة الهندية سبباً فى رقيها وانتشار ها النطلاق الأوسع.

وبعد تطور الأردية وانتشارها ، ومواد جيل لغته الأم الأردية ، أخد رجالات التصوف على عاتقهم نشر الدعوة الاسلامية بين الهندوس بالأردية ___ بدلًا من الفارسية ___ وألفوا الكتب الدينية من أجل هذا الغرض النبيل ، وترجموا اليها العديد من كتب التراث الاسلامى . وظهرت بواكير هذه المؤلفات الدينية بالأردية فى القرن الثامن الهجرى ، نذكر منها رسالة معراج العاشقين للشيخ" "خواجه بنده نواز سيد محمد كيسودراز ،، (ت.٧٢٥) ورسالة فى التصوف والأخلاق للشيخ" السيد اشرف جهانجير سمنانى" ، ورسائل كنز العلم للشيخ "عين الدين " . وساهمت هذه المؤلفات ___ وغيرها _ الى جانب القدوة والحكمة والموعظة الحسنة والمناظرات الدينية ، وفى نشر الأسلام بالاردية بين الهندوس ، فضلا عن تدعيم الوسطية وسماحة الاسلام بين المسلمين وغيرهم .

وبمرور الزمان تطور وارتقى أسلوب الكتابة عند اعلام الدعاة ، الى حد أن

بلغوا القمة بالنثر الأردى الدينى . وكان خير عمل قيام الشيخ " رفيع الدين الدهلوى " ، بتقديم أول ترجمة أردية لمعانى الفاظ القرآن الكريم ، وذلك فى عام ١٢٠٠هـ ، فدعمت الأردية مكانتها ومقدرتها ، ودللت على استطاعتها حمل معانى الفاظ كتاب الله المبين الى الملا يبين من المسلمين ، اضافة الى هدفها الأول المتمثل فى نشر رسالة الاسلام بين ملايين الهندوس والمذاهب الاخرى فى شبه القارة الهندية . كل هذا بواها عن جدارة منزلة لغة الدعوة الاسلامية والحضارة الاسلامية فى تلك البلاد المترامية الاطراف ، فى القرون الثلاثة الأخيرة ، وحتى يومنا الحاضر.

ومما سلف ذكره يستبين أن الأدب الأردى ـــ ونثره على الاخص ـ نشأ نشاة دينية صوفية ـ كما هو الشأن فى الادبين الفارسى والتركى ـ فكان وما يزال التصوف من اشهر التيارات الروحية واوسعها انتشاراً فى شبه القارة الهندية . وخلف علماء وأدباء الأردية تراثاً دينياً وعلمياً ، ساهم فى بناء وتشكيل صرح الحضارة الاسلامية ، والأدب الاسلامى على الاخص فى شبه القارة الهندية.

هذا واتجه كثير من اهل التصوف ـ من بعد ـ الى النظم بالأردية الى جانب الفارسية، حيث يعود اليهم فضل المحاولات الأولى الجادة للنظم بالأردية. وكان هدفهم من نظم الشعر مذهبيا بحتاً ، كما هو شان كتاباتهم النثرية . وخلف هؤلاء الرواد الأعلام من مشايخ وشعراء التصوف ، ديوانين

احدهما بالفارسية والآخر بالأردية ، ومن هؤلاء.. نذكر " خواجه مير درد الدهلوى النقشبندى (١١٣٣ـ ١١٩٩هـ) رائد الشعر الاردى الصوفى.

وحينما تمكن الانجليز من استعمار شبه القارة الهندية عام ١٢٧٢هـ/١٨٥٧م، ونفى الملك المغولى " بهادر شاه ظفر " (١١٨٩هـ ـ ١٢٧٩هـ) آخر ملوك دولة المغول الاسلامية ، رأوا أن اللغة الفارسية تمثل أعظم خطر يهدد حكمهم ـ نظراً لأنها اللغة الرسمية الاولى لدولة المغول الاسلامية الذين اغتصبوا الحكم منها ـ فعملوا على اقتلاعها من جذورها ولم يجدوا بداً من جعل الأردية اللغة الرسمية الثانية بعد الانجليزية ، فعاد هذا الاجراء بفائدة جد عظيمة على الأردية ، فافتتحت جامعات وشيدت كليات وجمعيات أدبية حكومية ، منها جامعة بنجاب والكلية الحكومية وجمعية بنجاب الادبية فى مدينة لاهور ، وتوجهت الصحافة نحوها ، فصدرت مئات الصحف والمجلات لتنشر العلم المفيد بالأردية ، وتدعوا الى الاخذ بكل جديد مفيد لا يتعارض مع الشرع الحنيف من حضارة الغرب . ومن اشهر الرواد فى مجال الأدب والصحافة الأردية فى تلك الفترة ، مولانا محمد حسين آزاد الدهلوى ، والطاف حسين حالى ، وشبلى النعمانى.

وشهدت الأردية تطورا بفضل ثلاثة أدباء شعراء عظام ، هم : مرزا اسد الله خان غالب (١٧٩٧ـ ١٨٦٩م) واكبر آله آبادى (١٨٤٦ـ ١٩٢١م) و محمد اقبال (١٨٧٧ـ ١٩٣٨م) الذين انتقلوا بالأدب الأردى ـ والشعر منه

خاصة _ الى نطاق العالمية .

والأردية الاسلامية اليوم ، ثالثأكبر لغات العالم الاسلامى وأوسعها انتشاراً بعد العربية والفارسية ، وان كان عدد الناطقين بها يتجاوز عددهم فى العربية والفارسية ، بالمتحدثون بالأردية يزيدون عن ستمائة مليون نسمة ، فهى اللغة القومية فى باكستان ، واحدى اللغات الأربعة عشرة المعترف بها فى الدستور الهندى كلغات رسمية ووطنية ، وان كانت لغة التخاطب بين الغالبية العظمى من سكان الهند . ويتحدث بها أغلب سكان بنجلاديش ، وعدة ملايين فى افغانستان ونيبال وبورما ودول الخليج العربى ، وبعض السكان من أصل هندى فى دول جنوب وشرق افريقيا ، وعدة ملايين فى انجلترا وكندا .

وتدرس الاردية فى اغلب جامعات اوربا وامريكا واليابان وغيرها . اما فى العالم العربى فكان للازهر الشريف فضل السبق فى افتتاح أول قسم علمى متخصص للأردية فى كلية اللغات والترجمة من جامعة الازهر ، وذلك فى العام الجامعى ١٩٧٩/ ١٩٨٠م، ثم انشاء قسم آخر فى كلية الدراسات الانسانية (فرع البنات بالقاهرة) فى العام الجامعى ١٩٩٦/١٩٩٧م، وتدرس كذلك جنباً الى جنب الفارسية والتركية فى أقسام اللغات الشرقية بكليات الآداب فى جامعات القاهرة وعين شمس والا سكندرية والمنصورة.

ولم يغفل الاعلام الاذاعى المصرى عن أهمية الأردية ، لذا كانت أول

الاذاعات الموجهة المبثة من القاهرة ' للغة الاردية وذلك فى عام ١٩٥٣م.

ان الاهتمام بالأردية فى مصر يتزايد على مر السنين ' وفى هذا من الدليل على أن مصر الازهر ' تعتز بلغات العالم الاسلامى الكبير ' تلك اللغات التى يعود لها الفضل _ الى جانب العربية _ فى نشر الدعوة الاسلامية والادب الاسلامى العالمى فى كل بقاع المعمورة .